الطب في البلاد من مئة سنة

بقلم الحكيم امين الجميّل

١

القى حضرة النطاسي البارع الحكيم امين الجميّل في نادي الشبيبة الكاثوليكية محاضرة نفيسة عن « الطب في بلادنا من مئة سنة » جمعت بين الفوائد التاريخية والنصحية والنصائح الثمينة التي يُحكم الدكتور سرّ دمجها في جسم ابحاثه . فرأينا ان نتحف قراءنا الكرام بقسم منها ، فلا تفوت الفائدة من مشعر البعد عن التمتع بسماء المحاضر.

اهم الامراض وافتكها

الطاعون

كان منذ الأصل شرّ وباء . وقد أُحصيت وفياته ، في القرن الرابع عشر ، بأمر العلّامة البابا اكليمنضوس السادس ، فبلغت ٤٢,٨٣٦,٤٨٦ نسمة منها ٢٥ مليوناً في اوربة ، اي ربع سكانها حينذاك .

وقد عُرف القُطر المصري في كل الاجيال بمثل هذه الأوبئة لأسباب ووضعيّات سيأتي بيانُها : منها طاعون سنة ٥٤٢ وسنة ١٢٩٤ وقيل إن فيه خرج ٧٠٠ جثّة ، في يوم واحد ، من بابٍ واحدٍ بمدينة القاهرة (المقهورة من الوافدة) وأفادنا حضرة الحكيم عزيز بك حلمي ، مفتش قسم الأوبئة بمصر ، أن هذا البلاء زارهم ٢١ مرّة بين السنتين ١٧٨٣ و ١٨٤٨

وإذا تذكّرتم الحكمة : « اذا كان جارُك بخير أو ويل ، فأنت بخير او ويل » ، أدركتم كيف كان المرض يُهاجمنا من الغرب مبدأً بفلسطين الى ان أصبح عندنا وعندهم مُقيماً مستوطناً يراوح بين الذيوع والشدّة ، والانكماش

والخفّة، والاختفاء. والوثوب تبعاً للسنين والأمكنة. فصرنا كيفما قلّبنا تاريخنا نعثر على «الواغش»[1] في كل صفحة منهُ وهامش. هاكم الدويهي العظيم الذكر يكتب ما نصّهُ: «وفي سنة ١٦٦٢ حدث الطاعون في بلاد الشام فهلك بهِ خلقٌ كثير» ثم يضيف أنه «في عام ١٦٦٨ بلغ عددُ الوفيات في حلب ١١٠ ألفاً وفي الشام ٧٥ الفاً وفي طرابلس والجبل عدد كبير جداً.»

وأورد صاحب تاريخ المقاطعة الكسروانية أنهُ في عام ١٧٥٨ جاء بالوباء من الاستانة الامير قاسم شهاب فسُمّي باسمهِ وذاع من صيدا الى اللاذقية؛ وأنهُ في عام ١٧٩٣ أمات، في قرية دلبتا، خمسة وتسعين شخصاً. غشا حلب ايضاً سنة ١٧٨٣ فذهب بالالوف، وفي دفاتر الآباء اللعازاريين انهُ مات به سنتئذٍ المرسَل (Merle) ابعير ٢٧ سنة بُعيدَ استلامه الدير من الاب (Signol) اليسوعيّ.

طفت هذه الوافدة في جيش بونابرت بالقُطر المصري، ومزّقته بيافا ١٧٩٩، على ما رسمته بفن رائع ريشة المصوّر غرو (Gros, *Les Pestiférés de Jaffa*) والصورة من تحف اللوفر بباريس. ولم يكن حظ عاصري عكا بأحسن، فضلاً عن صلابة العدو جاء طاعون بونابرت الخاصّ: انكلترة، فتعاون ثنية عليه مع الطاعون الدمّلي؛ حتى بلغت الوفيات الالفين: خمسين يومياً، بحسب تعديل الحكيم العسكري ديجنيت (Desgenettes) فألجئ بونابرت الى ان يعود الى مصر في ٢١ ايار سنة ١٧٩٩. وهنا مثلٌ بين الالوف يوضح ان للحالة الصحية يداً شلّت يد النزاة الى ان جاء باستور الفتّاح لما هو من الخير والوقاية! وفي وطننا لم يكن الوباء بأرفق ولا أرحم، فانه اهلك الالوف في مدائننا كحمص، وحماة، وزحلة، وبيروت، وكل مكان

رَوَى يوسف خطّار غانم في برنامجه المعروف أن الطاعون أمات هنا من أسرته، في يوم واحد بعام ١٧٩٩، ثلاثين شخصاً؛ فألحق بطاعون بيت غانم.

وقد اطّلعنا على «عدّية» تؤيّد ما ذكره المسيو غيز (Guise) المعاصر في كتابه من استمرار الطاعون في بيروت وجوارها طيلة سنة ١٨٢٦ برمّتها، وهي:

١) هذه الكلمة «واغش» التي لا تزال تسمُها، لم تتوفّق الى معرفة أصلها لا بالسريانية ولا بالتركية ولا بالعربية. فعسى ان يفيدنا عن ذلك احد قرّاء «المشرق» الكرام

إجا الطاعون من بيروت وحطّ في البادية
أخذ فرسان، أخذ عرسان أخذ شباب بيت زبينه

وفعلًا قد محى اسمُ هذه العيلة الدرزيّة، الكبيرة حتى عامئذٍ.

وقد ظلّ ساريًا فاشيًا الى سنة ١٨٤٥. والحكيم سوكه الذي كتب على قبره بجونيه: «أحبّنا في حياته حتى اختار الرقاد فيما بيننا بعد مماته» صرّح لي غير مرّة ان الحكومة الفرنسية أوفدتهُ الينا عام ١٨٤٧ ليشرف على الحالة الصحية، ويُفيدها عن سير الطاعون لتتقيه على حدودها. فلم يُعاينه بتّة؛ وكان اذا سمع بوجوده، هرول الى ذلك المكان، فلا يرى الا مجدورين او مصابين بسوى الطاعون.

وثبتت العصمة والنزاهة بين قومنا الى ان ظهر الطاعون من جديد في اسكندرية باواخر نيسان سنة ١٨٩٩، وميّزه الحكيم ثالاسوپولو في احد البقالين. ومن ثمّ كان يظهر باصابات افرادية من حين الى آخر، وما غتم ان عاد الينا في معصرة الحلاوة، فالخان الصيفي، فاحدى المطاحن، ولكن بشكل كأنه غير وبائي، لا يُشبه أصلًا الطاعون القديم، مع انه هو هو ولكن كان هذا التغيير لاسباب سننظر فيها بعد قليل.

الهواء الاصفر

اي الكوليرا، وباء هندي الاصل. واول ظهوره في ربوعنا كان سنة ١٨٢٢ فتخطّى حتى ازمير في ايار ١٨٢٣. وذلك مُثبت، على تأكيد وطنينا المرحوم قاسم عز الدين انه لم يطأ مكّة، اي الحجّاج، قبل السنة ١٨٣١. وقد ذهب بعض مؤرخينا الى ان وافدة ١٨١٧ هواء اصفر. على ان ذلك خطأ في التشخيص؛ فان ليتره (Littré) بين ان الهواء الاصفر لم يخرج من الهند قبل سنة ١٨٢٠.

وأفظع وافدات الكوليرا في سورية ولبنان ما مُنيا به سنة ١٨٤٥ و ١٨٦٥ و ١٨٧٥، فبلغت الوفيات في الشام وحمص وحماة وبيروت الألف في بعض الأيام، وكانت العامة تقول حينئذٍ: «ألف المرض»

واحسرتاه على تلك الضحايا التي قرأنا ذكرها باكتئاب في تذكارات الأمم

جيلاس (Sœur Gélas) مَن تفانت مع رفيقاتها في خدمة المرضى والموبوئين. وقد ذكرت عن اختلاط الامراض بعضها ببعض كالتيفوس والجدري والكوليرا الى حدّ انهن شاهدنَ موبوئين مُهملين تماماً لرعب الاقارب او لانقراض من يعولهم. وذلك مـا يفسر لكم ما اظهره الباشا إذ ذاك والعموم ، واشترك به اخواننا المسلمون الكرام من تظاهرات الاجـلال لمن مات من راهبات المحبة — وما اجدرهنَّ بهذا الاسم ! — ضحية الوباء او العناء ، كالفتاة الراهبة سالس (Sälze) والاخت دوفن (Dauphin) . ولهذا اجمعنا في لجنة تسمية الشوارع على تزيين احدها ، المارّ بوسط مؤسساتها الزاهرة ، بشارع الأم جيلاس.

اما ونحن في موقف الثناء على من استأهله في ذلك الزمان ، تخليداً لذكره نيلذ لي ان اسطر ما نوهتْ بـه من الاجلال والاعجاب الرئيسة جيلاس نفسها لمرسل خبرتهُ وخبرهُ الجميع رجلَ النيرة والهمة ، وهو الاب فيروفيش اليسوعي الاختصاصي بالفقراء وكبار الخطأة ومن نسميهم الاشقياء. وفي السنين المتأخرة ، ذَهم الهواء الاصفر غير مرة الشام وطرابلس وحمص والبقاع ، وارتقى حيناً الى اهدن ، ولكنه من ١٨٧٥ لم يغشُ بيروت لاسباب تطيلها لكم قريب

الجدري

داءٌ عريقٌ في القدم والفتك ، وتذكرون أن الرازي اول من كتب فيه وانه اعمى ابا العلاء المعرّي. لا يدخل بلدةً او عيلة حتى يفتك بربع اهلها ، ما خلا من يشوّه ومن يُعمي. اعرف اسرة كبيرة متشتتة الى ذلك اليوم (ولا ريب انها غيرت رأيها بعد نكبتها ...) بعقيدة القضاء والقدر ؛ فلم تعتصم بالتطعيم ، فأمات الجدري ٩ من ١٢ من اعضائها . وسنوقفكم بعـد هنيهة على إيذاء الجدري في لبنان ، وما كان للتخلّص من شره « على عهد الامير »

البرداء

قد لُمّح اليها في الكتاب المقدس. والعربُ ، قبل رونالدروس بالف سنة ، فقهوا عمل البعوض في شيوعها. وهاكم ، من عشرات ، مثلاً واحداً لاثبات ما تقدم: شكى قومٌ من اهل حصدة الى عمر بن الخطاب وباء ارضهم . فقال للحارث بن

كلدة ، فقال : « البلاد الوبيلة ذاتُ الادغال والبعوض وهو عُشّ البلاء ؛ ولكن يخرج اهلها الى ما يقاربها من الارض المذيّة[1] . فأمرهم بذلك .» ومن اقوالهم : « بُعض القوم وحُتوا ».

ومالي استشهد بالحجاز او العراق وعلى خطوتين من هنا « نهر الموت » ، و « عين افرُشْله » و « القبّارية » و « زوق الخراب » واسمعُ : « يا طالب العافية من البوشريّة ! » و « جاب له الضيق من عميق » وهلم جرّا ...

والبُرَداء كانت على هذه السيادة ايضاً من مئة سنة. وخيفةَ الاطالة اقتصر على إيراد موجز بعض فقرات من رسالة كلوت بك الفرنسي ، من عَظَمَ بالأمس العالم كلّه في مؤتمر طبي فخم تأسيسه مدرسة مصر . والفضل في وجود هذه الرسالة لاستاذنا المعلوف ، وفي نشرها لتقاربنا الهام اسد رستم في مجلة الكلية . وهي مترجمة بهذه العبارة :

« هذه الرسالة من كلوت بك كشاف عموم الخدمة الصحية الى ضباط الصحة اولاد العرب بالاوردي المتعود ببرّ الشام في خصوص الحمى المتقطعة[2] .

« قد بلغنا ان ببرّ الشام حتى متقطعة مستولية هناك استيلاء وبائياً . وسببُ هذه الحمى القرب من مجاورة البطائح والبرك والمناقع والجداول التي فيها جري الماء قليل ، لان الابخرة الرديئة المتصاعدة (ومن هذا التصوُّر كلمة ملاريا : الهواء الرديء) تنتشر وتسبب عنها الحميّات وتستولي استيلاء وبائياً في كل سنة زمن الربيع او الخريف وتزول في الشتاء . » ثم اتى على اعراضها الرئيسية الثلاثة : اي البرد ، فالحمى ، فالعرق ، ثم مدّتها وانتهائها وإنذارها تماهو مثبت الان . ولم يغفل عن النوع الخبيث ولا عن المعالجة ، مشيراً كواق وشافر بالدواء العجيب الذي يخلّد فضل اليسوعيين ، عنيت الكينا ، واليسوعيون اتوا بها من بلاد البيرو في اواخر القرن السابع عشر . اما الرسالة فصادرة عن القاهرة في ١٥ رجب ١٢٤٩ هـ . (١٨٣٣م) (للبحث صلة)

---

١) المَذِيّة : الارض الخبية البعيدة من الماء .

٢) ما تسميه ملاريا او fièvres intermittentes